القصص

من الأدب الإيطالي

الوســـيط

للقصصي الإيطالي « بوكاشيو »

بقلم محمد عبد اللطيف حسن

كان في فلورنسا منذ قريب سيدة إيطالية حسناء تدعى بريتولا ، وقد اشتهرت هذه السيدة بين أهل بلدتها بمكرها ودهائها وسعة حيلتها ، وكان ذكاؤها وفطنتها مثار دهشتهم ، وموضع إعجابهم . ومما يؤسف له أنها كانت متزوجة من تاجر غني لا يفهم الحياة إلا من ناحيتها المادية ، ولا يهتم بشيء قدر اهتمامه بما يجنيه من ربح ومنفعة من وراء تجارته ! أما حاله مع زوجته فلم تكن حال الزوج الموافق المهتم ! وهذا ما دعاها إلى النفور منه والميل إلى غيره

وقد أسعدها الحظ حينئذ برؤية شاب جميل كان دائم المرور أمام منزلها فأحبته حباً جماً وأصبح لا يهنأ لها بال أو يسعد لها حال ما لم تره مرة في كل يوم على الأقل ! ! وكان هذا الشاب — واسمه تنكريد — يجهل في مبدإ الأمر تعلقها به ، وعنايتها بأمره ، فلم يلتفت إليها ولم يهتم بها

وبالرغم من أن تجاهله لها كان يضايقها ويكدر عليها صفوها ، فانها كانت حريصة فلم تحاول الاتصال به عن طريق الاستفسار عنه أو إرسال الرسائل اليه خشية أن يلحظ أحد علاقتها به أو يكتشف سر حبها له ؛ وهداها تفكيرها آخر الأمر الى أن تلفت نظره اليها وتجتذب قلبه نحوها عن طريق قسيس ورع كان من أخلص رفقائه وأكثرهم له وفاء ومحبة

وبعد أن اختمرت هذه الفكرة في رأسها ذهبت إلى الكنيسة التي يقيم بها هذا القسيس وابتدرته بقولها :

— لقد جئت إليك يا سيدي أطلب معونتك في أمر مهم سأشرحه لك . ولعلك تذكر أنني أخبرتك في مرة سابقة عن أقاربي وزوجي الذي يحبني أكثر من حبه لحياته ، والذي لم يتأخر في يوم من الأيام عن تحقيق ما أطلبه منه ! ! ولهذا أحببته أنا الأخرى حباً شديداً وأصبحت لا أطيق الفراق عنه أو أستطيع الحياة بدونه ! ! أما ما جئت إليك اليوم من أجله فهو أن هنالك شاباً يدعى تنكريد ، وهو كما علمت من بعض الناس صديق حميم لك ، اعتاد أن يمر من أمام منزلي كل يوم ، وفي كل مرة يمر فيها أراه يرمقني بنظراته التي تدل على شدة حبه لي ، وكثرة هيامه بي . وقلما يحول بصره عني طيلة الوقت الذي أكون فيه مطلة من نافذة غرفتي . فاضطر إلى مغادرة النافذة أو إغلاقها في وجهه خشية أن يتقول عليّ الناس بما يشين سمعتي أو يسيء إلى شرفي . وليس ببعيد يا سيدي أن يكون تنكريد هذا قد تعقب خطاي ورآني وأنا أدخل هذه الكنيسة ، أو من المحتمل أن يكون الآن في انتظاري خارجها ! وأصدقك القول يا سيدي أن هذا الأمر قد أصبح يضايقني أكبر المضايقة ، ويؤلمني أشد الألم . بل لقد بلغ الأمر بي إلى حد أنني أصبحت أفضل الموت على أن أكون مضغة في أفواه الناس !

وبعد أن استراحت برهة قصيرة تابعت حديثها فقالت :

— وكثيراً ما فكرت يا سيدي في أن أحيط إخوتي أو زوجي علماً بهذا الموضوع الشائن ، ولكني لا ألبث في كل مرة أن أحجم عن ذلك حينما أتذكر أن الرجال غالباً ما ينهون مثل هذه الأمور بالضرب المؤلم الذي قد يفضي إلى الموت في كثير من الأحيان ! وأخيراً استقر رأيي ، حقناً للدماء وحسماً للنزاع ، على أن أطلب مساعدتك لسببين : الأول أن هذا الشخص صديقك فتستطيع من هذه الناحية أن تردعه بنفسك ؛ والثاني أن من أهم واجبات القسيس الورع التقي إصلاح سيئات الناس وخطاياهم سواء أكانوا أصدقاء أم غرباء . وأنا أتوسل إليك يا سيدي أن تنصح صديقك هذا بالكف عن مغازلتي

والامتناع عن النظر إليّ . وإذا كان لا بد له من هـذه النازلة فهناك كما أعلم سيدات كثيرات غيرى يتمنين من صميم أفئدتهن أن يكن عشيقات وفيات له ! !

ولما انتهت بريتولا من بث شكواها نكست رأسها كما لو كانت توشك أن تبكى من شدة الحزن والتأثر ! !

ولم يشك القسيس الساذج فى شىء مما قالته ، بل أخذ على العكس يمتدح خصالها الطيبة ويثنى على حسن تصرفها ورجاحة عقلها ! ! ووعدها أخيراً بتحقيق رجائها وإجابة ملتمسها . .

وقبل أن تغادر بريتولا الكنيسة قالت للقسيس الطيب القلب :

— ولا تنس ياسيدى أن تخبر تنكريد إذا دفعته الجرأة إلى انكار شىء مما قلته لك ، بأننى قد أتيت إليك بنفسى واعترفت أمامك بكل شىء . .

* * *

وفى اليوم التالى أرسل القسيس فى طلب صديقه تنكريد . ثم انتحى به جانباً وأخذ يلومه بلهجة هادئة ، وعبارة متزنة ، على تصرفه الشائن مع بريتولا . .

ودهش تنكريد بطبيعة الحال لهذا الاتهام الذى لم يخطر على باله ، لأنه ، كما قلنا ، لم يرفع بصره الى بريتولا فى مرة من المرار التى كان يمر فيها أمام منزلها ؛ وبالرغم من أنه نفى عن نفسه هـذه التهمة بشدة ، فان صديقه القسيس لم يصدق ذلك وقال :

— لا تتظاهر بالدهشة يا عزيزى من هذا الأمر ، ولا تحاول أن تنكر هذه التهمة لأننى سمعتها من شفتى بريتولا نفسها . .

وبعد أن سكت برهة قال :

— ولعلك تعلم يا تنكريد أن هـذا السلوك الشائن وذلك التصرف السيء لا يليقان برجـل فاضل مثلك ، وإنى أنصحك نصح الصديق المخلص أن تدع هذه السيدة الفاضلة تعيش فى هدوء وسلام مع زوجها الذى تحبه إلى حد العبادة ! ولا تحاول أن تقلق راحتها أو تفسد حياتها مرة أخرى . .

ولم يغب عن بال تنكريد غرض بريتولا من هذا الاتهام الكاذب . وقبل أن يغادر الكنيسة وعد صديقه ألا يعرض لبريتولا ولا أن يضايقها بعد ذلك . فاستراح القسيس لهذا الوعد وشكره على شهامته ونبل أخلاقه

وقصد تنكريد من فوره إلى منزل بريتولا . ولحسن حظه وجدها فى انتظاره كالمعتاد فى نافذة غرفتها

وما كادت بريتولا تراه وهو مقبل على منزلها حتى ابتسمت له ابتسامة خبيثة ما كرة ، وتجلى البشر والسرور فى قسمات وجهها ، وحيته بهزة خفيفة من رأسها الجميل

وتأكد تنكريد الآن أنه لم يكن مخطئاً فى زعمه ، فابتسم لها ابتسامة رقيقة عذبة ورد تحيتها بأحسن منها . .

ومنذ هذا اليوم أخذ يصوب نظره اليها فى كل مرة يمر فيها من أمام منزلها ، فكان ذلك سبباً فى سرورها وغبطتها . .

* * *

والظاهر أن بريتولا لم تكتف بهذا الفوز الباهر بل أرادت أن تتقدم فى سبيل حبها خطوة أخرى . فذهبت الى القسيس وألقت بنفسها بين قدميـه ، وأخذت تبكى بكاء مراً . فدهش القسيس وسألها عن سبب بكائها ! فأجابته بريتولا دون أن تكف عيناها عن البكاء

— إننى أبكى ياسيدى بسبب صديقك اللعون الذى شكوته اليك من قبل

فقطب القسيس ما بين حاجبيه وسألها قائلا :

— ألا يزال هذا الرجل يضايقك ؟

فأجابته بريتولا وهى تبكى :

— نعم . منذ أن شكوته إليـــك وهو لا يفتأ يضايقنى بنظراته الوقحة ، ويؤلمنى بابتساماته السخيفة . وليس هذا فقط . بل أنه بعد أن كان يمر من أمام منزلى مرة واحدة أو مرتين فى اليوم أصبح يمر الآن ما لا يقل عن سبع مرات ! !

وبعد أن نهنهت دموعها الجارية تابعت حديثها فقالت :

— وليت الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، فبالأمس أرسل إلىّ من قبله عجوزاً لا أعرفها . وبعد أن عرفتها بنفسى أعطتنى حقيبة جلدية نفيسة ومنديلا حريريا غالى الثمن ، وقالت لى وهى تبتسم ابتسامة ذات معنى إنهما مهداتان إلىّ من تنكريد ! ولا أكتمك ياسيدى أننى غضبت لذلك غضباً شديداً وكنت على وشك أن أطردها هى وهدية تنكريد خارج منزلى ، لولا أننى خشيت أن تحتفظ بالحقيبة والمنديل لنفسها دون أن تخبره برفض هديته ! ففضلت أن آخذهما منها ! وقد رأيت من الواجب أن أحضر معى هذه الهدية لكى تردها اليه وتخبره بأننى لست فى حاجة الى شىء منه . وأرجو أخيرا أن تحذر صديقك هذا بأنه إذا لم يكف عن مضايقتى ، فأننى سأضطر حتما الى إخبار زوجى

أو إخوتى بكل شىء مهما كانت النتائج التى تترتب على ذلك

قالت ذلك وقدمت الحقيبة والمنديل للقسيس وهى تتظاهر بالحزن والغضب لأهانة تنكريد إياها ! !

وظن القسيس لسذاجته وسلامة صدره أن ما قالته بريتولا قد حدث بالفعل ، فتغضب لذلك غضبا شديداً ، وقال لها بعد أن فكر برهة :

إننى لا أستغرب ياسيدتى شدة حزنك لهذا الأمر ، ولست ألومك بالطبع على شىء مما حدث . بل إننى على العكس أشكرك على اتباعك نصيحتى ، وعملك بمشورتى . ومع أننى لمت تنكريد عندما زارنى لأول مرة ، فانه على ما يظهر لم يرعو عن غيه ، ولم يرتدع عن ضلاله ، ولهذا عولت على أن أوبخه توبيخاً شديداً على هذا السلوك المعيب . وأرجو ياسيدتى ألا تنقادى لعاطفتك فتخبرى زوجك أو إخوتك بهذا الأمر ، فان نتائجه السيئة لا تخفى بالطبع على سيدة عاقلة مثلك ، بل اتركى كل شىء وأنا أتصرف فيه بعقلى وحكمتى

* * *

وما كادت بريتولا تبرح الكنيسة حتى أرسل القسيس فى طلب صديقه تنكريد مرة أخرى . فلما جاء قابله بوجه عابس وجبين مقطب . واستنتج تنكريد من ذلك أنه لابد وأن تحادث مع بريتولا فانتظر بفارغ صبر ما سيقوله له . ولم يطل انتظاره طويلاً إذ انهال عليه القسيس بوابل من الشتائم واللعنات بعد أن أعاد على مسامعه كل ما ذكرته بريتولا له .

وبالرغم من أن تنكريد أنكر بشدة إرساله الحقيبة والمنديل الى بريتولا ، إلا أن القسيس لم يصدق قوله ، بل اشتدت حدته وازداد غضبه عن ذى قبل ثم قال :

— كيف تنكر ذلك أيها الشرير المنافق مع وجود الدليل المادى على ارتكاب فعلتك ؟

ثم نهض من مقعده ، وأحضر الحقيبة والمنديل وناولها إياه ثم قال :

— أليس فى هذا الكفاية ؟ فشمر تنكريد — مع براءته — بالخجل لوجود ذلك الدليل القاطع ، ولما لم يجد بداً من الاعتراف بهذه التهمة المنسوبة اليه قال :

— نعم . لقد أرسلت الى بريتولا هذه الهدية لأننى كنت أحبها كغيرها من النساء ، ولكنى بعد أن تأكدت الآن أنها تختلف عنهن كل الاختلاف ، فانى أعدك بشرفى ألا أرتكب ما يسىء سمعتها أو يجرح شعورها . وثق ياسيدى أنك لن تسمع منها بعد اليوم شكوى

ولم ينس تنكريد أن يأخذ معه الحقيبة والمنديل قبل أن يغادر الكنيسة بعد أن اقتنع تماما من أن بريتولا تحبه حباً جماً ، وتهيم به هياماً شديداً ، وأنها ما فعلت ذلك إلا بدافع هذا الحب والهيام ...

وقصد تنكريد من فوره إلى منزل بريتولا حيث كانت لحسن الحظ فى انتظاره كالمعتاد ، وما كاد صاحبنا يلمحها من بعيد حتى أخرج من تحت ابطه الحقيبة والمنديل وأراها إياها . فسرت بريتولا سروراً شديداً لأنها عرفت حينئذ أن خطتها المرسومة سائرة فى طريق التقدم

* * *

ولم يبق إلا غياب الزوج عن منزله لتكلل خيانة بريتولا بالنجاح التام . ولم يطل انتظارها طويلاً إذ اضطر الزوج بعد بضعة أيام من وقوع الحادث السابق الى السفر الى جنوا ، للقيام باحدى المشاغل الضرورية التى تتطلبها طبيعة عمله

وذهبت بريتولا الى القسيس مرة ثالثة عقب سفر زوجها مباشرة وقالت له وهى تبكى :

— لقد سبق أن قلت لك يا سيدى بصراحة أنه لا يمكننى أن أحتمل مضايقة تنكريد أكثر من ذلك . ولما كنت قد وعدتك بألا أقدم على عمل شىء قبل مشورتك ، فقد جئت إليك اليوم لأشكو لك من صديقك تنكريد ..

فذهل القسيس حينما سمع منها ذلك وسألها قائلاً :

— ألا يزال هذا الملعون يضايقك ؟؟ فقالت له : بريتولا وهى تتظاهر بالحدة والغضب :

— نعم . ففى مساء الليلة الماضية دخل حديقة منزلى بعد أن علم بسفر زوجى إلى جنوا — ولست أدرى كيف — وتسلق إحدى الأشجار إلى نافذة غرفتى ، والتى كانت لسوء حظى مفتوحة فى ذلك الوقت . وكنت على وشك أن أصرخ عندما رأيته فى غرفتى لولا أنه توسل إلىّ ألا أفعل ذلك ، ورجانى بأن أكون رحيمة به فلا أرتكب ما يلفت أنظار الناس إليه . وأقول لك الحق يا سيدى إننى خضعت لتوسلاته ولم أفعل شيئاً أكثر من أننى طردته من نفس النافذة التى جاء منها ثم أغلقتها وراءه بشدة ..

وبعد أن سكتت برهة تابعت حديثها فقالت :

— والآن أرجو أن تحكم ياسيدى بنفسك فى هذا الأمر وتخبرنى هل فى إمكانى أن أحتمل مضايقة تنكريد أكثر من ذلك ؟؟ أو ليس من الواجب أن أخبر إخوتى بما فعله حتى يردوه إلى صوابه ، ويعيدوا إليه ما غرب من عقله ؟؟

واحمر وجه القسيس حينما سمع ذلك وفار دم الحنق والغضب حاراً فى عروقه وقال :

— وهل أنت متأكدة من أن الذى دخل غرفتك إنما هو تنكريد دون غيره ؟؟

فأجابته بريتولا وهى لا تزال تبكى :

— وهل يمكننى يا سيدى أن أخطئ فى معرفته بعد كل ذلك ؟؟ فأنا واثقة تمام الثقة من أن الشخص الذى دخل غرفتى إنما هو تنكريد نفسه . وإذا تجاسر وأنكر ذلك أمامك — وهذا ما سيفعله بالطبع — فأرجو منك ألا تصدقه ..

وبعد أن مرت بين الاثنين فترة سكوت قصيرة قطعها القسيس بقوله :

— إن ما فعلته يا سيدتى إنما هو الصواب بعينه ؛ وقد قمت بواجبك خير قيام . ولست أنكر أن عمل تنكريد فى منتهى الخسة والدناءة ، ولكنى مع ذلك أستحلفك بالله أن تتركى هذا الأمر لى مرة أخرى دون أن تخبرى إخوتك بشىء مما حدث ؛ وسترين بعد ذلك إذا كان فى إمكانى أن أقوم اعوجاج تنكريد . فاذا أفلحت كان بها ، وإذا فشلت فسأترك لك الخيار فى أن تتصرفى فى هذا الأمر كما تشتهين ..

وقبل أن تغادر بريتولا الكنيسة قالت للقسيس وهو يودعها :

— تأكد ياسيدى بأننى لن أضايقك بهذه المسألة بعد الآن . وقد استقر رأيى على ألا أخبرك بشىء فى هذا الموضوع مطلقاً

* * *

وما كادت بريتولا تبرح الكنيسة حتى استدعى القسيس صديقه تنكريد بعد أن استقر رأيه على أن يزجره زجراً شديداً وأن يعنفه تعنيفاً قاسياً . ولما حضر قابله بوجه مقطب ، ومظهر قاس ، ثم انتحى به ناحية من الكنيسة وأخذ ينهال عليه بالشتائم واللعنات التى كانت تزداد حدتها شيئاً فشيئاً ، بينما جلس الآخر فى مكانه هادئاً ساكناً كما لو كانت هذه الشتائم واللعنات موجهة إلى غيره ! وأخيراً ضاق تنكريد من تأنيب القسيس وقال :

— ما الذى فعلته يا صاحبى حتى استحق منك كل هذه الشتائم ؟

فازداد غضب القسيس لهذا الانكار وضحك ضحكة ساخرة ثم قال :

— ألا تدرى ماذا فعلت أيها الأحمق ؟؟ إنك تتكلم كما لو كان هذا الأمر لا يعنيك ..

فتظاهر تنكريد بالدهشة وقاطعه بقوله :

— عن أى أمر تتحدث يا مولاى ؟؟

فحملق القسيس فى وجهه بشدة وقال :

— أين كنت فى مساء الليلة الماضية ؟؟

فأجابه تنكريد بهدوئه وسكونه المعتاد :

— لست أدرى بالضبط يا سيدى !!

فازدادت ثورة القسيس ثم قال :

— سأخبرك أين كنت أيها المخادع الشرير !!

وبعد أن استجمع شتات تفكيره تابع حديثه فقال :

— لقد دخلت حديقة بريتولا فى مساء الليلة الماضية ثم تسلقت إحدى الأشجار إلى غرفتها ، وكاد أمرك يفتضح لولا أنها أشفقت عليك ورأفت بك ولم تفعل شيئاً أكثر من أنها طردتك من نفس الطريق الذى جئت منه !!

ولم يغب عن بال تنكريد ماذا تقصده بريتولا من هذا الكلام الذى قالته للقسيس ، وأخذ يفكر فيما يجب عليه أن يفعله فى مساء تلك الليلة ، ولكن القسيس ما لبث أن قطع عليه حبل تأملاته فقال :

— إنك تظن أيها المنافق أن فى امكانك أن تحمل هذه السيدة الفاضلة على حبك .. ولكن لا ! ولست أغالى اذا قلت لك انك أصبحت الآن أبغض الناس اليها ، وأثقلهم على قلبها ! وليس هذا فقط ، بل أنك أمسيت فى نظرها كالطاعون الذى لا يترك انسانا الا بعد أن يفتك به ! حقاً إنك لم تستمع لنصحى ولم تأبه لارشادى ، ولكنى أؤكد لك بأن الأمر قد خرج الآن من يدى . فاذا لم ترتدع ، فستضطر بريتولا الى إخبار إخوتها أو زوجها بكل ما فعلته معها ، وفى هذا كما تعلم ويل وعذاب لك . .

وبعد أن هدأ تنكريد ثورة القسيس بوعوده وتوسلاته غادر الكنيسة وهو على أشد ما يكون من الفرح والسرور

* * *